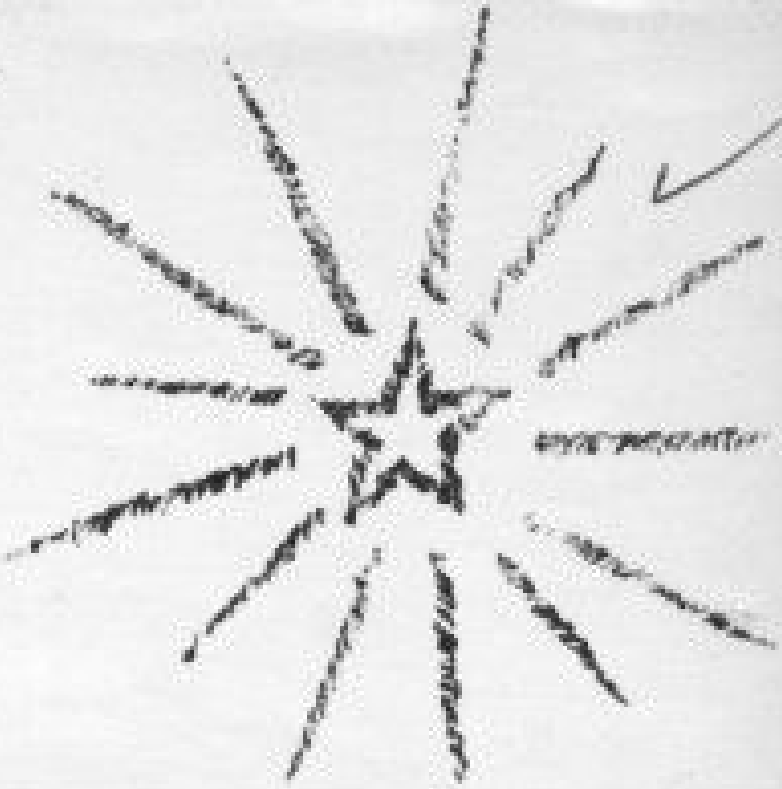

اللهُ معنا

«ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا». (مت ١ : ٢٣).

"الكلمة صار جسداً"
يو ١ : ١٤

يوسف حبيب

مُراد أنور المسيحة

حضرة صاحب القداسة البابا المعظم الأنبا كيرلس
بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

نقدم هذا الكتيب الصغير مقتطفاً من أقـــوال القديس فم الذهب ، فى شرحه على انجيل متى البشير ، وقد أضفنا اليه بعض اضافات بسيطة وجدناها لازمة من أقوال أغسطينوس ، الأنبا بولس البوشى وسوف يكون هذا الكتيب إنشاء الله عينة صغيرة لمجلد كبير شامل لميلاد رب المجد يسوع من أقوال القديسين يحوى جوانب متعددة عن الموضوع نسأل الرب أن يجعل هـذا الكتيب بركة لنفوسنا آمين ؟

• • • • •

مصادر هذا الكتاب :

(١) مجموعة : « *Nicene & post-Nicene Fathers* » *First series (Vol X)*

(٢) كتاب « مواعظ فم الذهب عن الميلاد - ترجـــمة الارشمندريت الكسيوس شتوى » .

(٣) مبسر « ذهبى الفم عن اسرار الميلاد » دير السريان .

الله معنا

« لكنه أخلى ذاته صائراً فى شبه الناس وإذ وجد فى الهيئة كإنسان . . . »

ف ٢ : ٧ ، ٨

« عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد . . . »

١ تيمو ٣ : ١٦

« . . كان الكلمة الله . . والكلمة صار جسداً » .

يو ١ : ١ - ١٤

« . . يدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا »

اش ٧ : ١٤

إلى مدينة الملك العظيم..!

« .. ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لكم ولجميع الشعب إنه ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب . . »

لو ٢ : ١٠

يخاطبنا القديس يوحنا الذهب فاتلا :

لنستعد للدخول

لنستمع إلى موضوع الميلاد منذ اليوم بإصغاء كثير ، لأننا بذلك سندخل إلى المدينة المقدسة . . . وقد أرشدنا الإنجيلى متى إليها . . . لنفتح أعيننا ولنرهف آذاننا إذ نحن مزمعون أن نطأ عتبة الباب ، فلنسجد للملك المقيم هناك وذلك لأن النظرة الأولى إليه بوسعها أن تلقى الرعب فى نفوسنا . . .

كيف نستعد للدخول ؟

إن كان اليهود القدماء قد تقدسوا ثلاثة أيام وبيضوا ثيابهم ووقفوا بخوف ورعدة استعداداً لقبول الشريعة . . فكم بالأولى

جنا نحن الآن أن نستعد للدخول إلى مدينة الله ذاتها ولسماع كلمته . . أيقظ الآن ذهنك وارهب حينما تسمع أن إلها أتى إلى الأرض ! لقد كان هذا الحادث من الغرابة والعجب حتى وقفت الملائكة أفواقا وجعلوا ينشدون تسابيح الشكر ، والمسكونة كلها اندهشت عندما نظرت هذا السر وسبقها فى هذه الدهشة الأنبياء الذين أدركوا بالروح هذه الحقيقة . . .

لقد حل الإله المساوى لأبيه فى الجوهر فى أحشاء عذراء ورضى أن يولد من امرأة وأن يكون (داود وابراهيم) جدين له ليجعلك (إبنا لله) .

ويكمل القديس أغسطينوس قائلا :

لنؤمن ونصدق . .

تعال معى إلى الميلاد الآخر (أى غير الميلاد الأزلى) ، الميلاد البشرى ، تعالى معى إلى ذلك الميلاد الذى فيه ، أخلى ذاته آخذاً صورة عبد ، (فى ٢ : ٧) .

فأنظروا ماذا كنا نستطيع أن نفهمه أو ما إذا كنا نستطيع أن نقول عنه شيئاً . . !

فإن كنا لا نستطيع أن ندرك ميلاده البشرى ، فكيف

نستطيع إدراك ميلاده الإلهى . . ! من يستطيع أن يدرك أعجوبة الأعاجيب هذه : عذراء تحبل ! عذراء تلد ! عذراء تبقى عذراء بعد الولادة !!!

لكن مالا يستطيع العقل أن يفهمه يستطيع الإيمان أن يدركه. وحيثما يقف العقل فإن الإيمان يتقدم ! ! .

البشارة بميلاده العجيب

يتساءل فم الذهب : لماذا بشر يوسف بعد الحبل ؟

ويجيب قائلا : يبدو أن الملاك سكت أولا عن إخباره بذلك إلى أن يتم الأمر فعلا ويقع تحت حواسه ، حينئذ يسهل تصديقه . كذلك لم يعلمه بذلك خشية أن يمتنع عن التصديق أولا فيحل به ما حل بزكريا والد يوحنا المعمدان قبله .

وبنفس الطريقة أيضا صمتت العذراء عن إخبار يوسف خشية أن تثير غضبه وتبدو كأنها ارتكبت إثما أرادت إخفاءه عنه .

لماذا لم يظهر له الملاك علنا ؟

لقد كان إيمان هذا الرجل قويا ولم يحتج إلى هذه الرؤية العيانية مثل الرعاة بل إكتفى بالرؤية فى حلم .

وقد ظهر الملاك للعذراء لأنها كانت مقبلة على سماع أمر عظيم يفوق البشرى فاحتاجت إلى مشهد عجيب .

وإن سألت : كيف كان لهذا الرجل أن يصدق قول الملاك له

فى حلم ؟ ! نجيبك بأن ذلك لعدة أسباب :

١ — كان هذا الإعلان برهاناً لما قيل له ، لأن ما أخفاه فى نفسه ولم يقله لأحد من الناس بل افتكر به ، هذا سمعه من الملاك فزال ارتيابه ، إذ كشف له الملاك سريرته . .

٢ — حين جاء إليه الملاك قال له « يا يوسف ابن داود ... » فذكره فى الحين بداود الذى منه أزمع المسيح أن يولد . . وإلا لما دعاه بهذا اللقب (ابن داود) ؟ ! .

٣ — لما ذكر اسم (مريم) أضاف (امرأتك) . فلو كانت قد إنفسدت ما كان قد دعاها بهذا الإسم . وقوله « امرأتك » معناه (خطيبتك) على حد ما اعتاد الكتاب أن يدعو المخطوبين قبل العرس (أنظر تث ٢٨ : ٣٠ ؟ لو ٢ : ٥) .

† † †

نسب المسيح لداود

(ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه)
لو ١ : ٣٢

فلماذا لم يذهب للعذراء من حيث أنها من نسل داود [1]

يجيب فم الذهب قائلا :

ينبغى أن نعلم أن الشريعة اليهودية تمنع إحصاء نسب المرأة ، ولم يحاول الإنجيلى متى أن يخالف هذه العادة خشية أن يتهم بالتجديد ، فاحترم هذه التقاليد لكى ينفى عن كلامه كل شبهة .

لذلك : أعطى نسب يوسف مع أن المسيح ليس من زرعه

فهو لو صمت عن ذكر نسب يوسف لما عرفنا أجداد البتول ... ومن جهة أخرى إن الله لم يشأ أن يعرف اليهود حين

(١) إن العذراء من نسل داود وذلك لأن الملاك أرسل (إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود واسمه) (لو ١ : ٢٧) ، والشريعة لم تكن تجيز لأحد أن يأخذ له زوجاً من غير قبيلته (عدد ٣٦ : ٨ ، ٩) إذن ما ينطبق على العذراء ينطبق على يوسف أيضا من جهة النسب . هناك دليل آخر ذكر فى (لو ٢ : ٤ ، ٥) .

ولد المسيح أنه ولد من عذراء ، ولا نضطر بوا من غرابة ما أقول لأن هذا القـــول ليس من بل نقلته عن آبائنا أولئك الرجال الجديرين بكل إحترام ، فاذا كان الرب نفسه منذ البدء يلتى ستاراً من الظل على حقيقة طبيعته داعيا ذاته (ابن الإنسان)... أفيدهشكم أنه أراد أن يخفى تلك الحقيقة بتدبير خطير وغريب ؟! ألا وهو حماية العذراء وجعلها بمنجى عن كل ريبة مخزية ، لأنه لو عرف اليهود منذ البدء ذلك السر لكانوا أساءوا تفسيره ليتخذوا من ذلك سببا للحكم على البتول ورجمها كزانية .

ولادته من عذراء

أولا : لماذا ولد من امرأة ؟

يقول القديس ذمى الفم :

« مولوداً من إمرأة . . . » (غل ٤ : ٤) هكذا يقـــول الرسول ليبكم أفواه الذين يقولون أن المسيح مر فى العذراء مرور المياه فى الأنبوبة . لأنه إذا صح ذلك فما الحاجة إلى مستودع امرأة ! ! وإذا صح ذلك فليس من شركة بيننا وبينه ، بل كان جسده جسداً آخر ومن أصل آخر ! .

ويورد القديس أغسطينوس تأملا فى ذلك قائلا :

« إن ميلاده من امرأة أراد أن يعلن بعض أسراره العلوية .. وهو أنه ينبغى على كلا الجنسين ـ أى الذكور والاناث الا ييأسوا من خلاصهم . . فبمجيئه رجلا دون ولادته من امرأة ما يجعل النساء ييأسن من ذواتهن فيتذكرن خطيتهن الأولى ... فكأنه يخاطب البشرية قائلا : ينبغى أن تعلموا أنه ليس فى خليقة الله شر ، أنظروا فقد ولدت رجلا وولدت من امرأة فإنى لا أحتقر خليقتى بل أحتقر الخطية التى لم أوجدها ! ! .

ثانيا : لماذا دعيت العذراء امرأة ؟

ليس لأنها فقدت بتوليتها ، بل لأن هذا التعبير (العذراء) غير معروف فى لغة شعبها ، والرسول بولس نفسه يقول (مولوداً من إمرأة) .. فى العبرانية يدعون كل أنثى امرأة واوضح مثل لذلك : أن اول أنثى خلقها الله أخذ إياها من جنب الرجل دعيت أيضا امرأة قبل التقائها مع الرجل . . . لأن الكتاب المقدس يقول ، وعملها الرب . . . إمرأة ، وإن سألت : فلماذا يقول البشير ، لم يعرفها حتى ولدت إبنها البكر ، مت ١ : ٢٥

يجيبنا فم الذهب قائلا

ليس المقصود من قول الإنجيل « حتى » أنه عرفها بعد ذلك ، بل لنعلم أن البتول ليست بتولا بعد ذلك . فلماذا إذن يقول هذا اللفظ (حتى) ؟ إن هذا التعبير يستعمله الكتاب المقدس مراراً كثيرة ولا يراد به وقت محدد . فقد ورد عند ذكر سفينة نوح أن الغراب ، لم يرجع حتى جفت الأرض ، (تك ٨ : ٧) مع أنه لم يرجع بعد ذلك مطلقا .

وتكلم داود عن الله فقال ، أنت يارب منذ الازل حتى

الابد . . ، (مز ٩٠ : ٢) والمقصود بذلك أنه إله غير محدود .. (١)

أما مايقصد الإنجيل أن يعلمنا إياه هو أن مريم بقيت عذراء حتى بعد الولادة .

(١) توجد آيات أخر كثيرة توضح معنى هذا اللفظ « حتى » منها : « لم تخل ميكال حتى مات » (٢ صم ٦ . ٢٣) فهل ولدت بعد أن مات ؟ ! إقرأ أيضا مت ٢٨ : ١٩ ، مز ١١٠ : ١ . . .

تدعو اسمه يسوع

كان اليهود يعرفون اسم (يشوع) (١) حق المعرفة : فيشوع خلف موسى أدخل الشعب إلى أرض الميعاد ، هذا هو الرمز فانظر إلى الحقيقة :

لأن ذاك قاد الشعب إلى أرض الميعاد أما هذا فإلى السماء لإمتلاك الخيرات التي لا تبلى . ذاك خلف موسى وهذا يخلف الناموس .

ذاك قائد وهذا ملك ، وهناك فرق بين الاثنين لأن الثاني ابن داود . ولئلا يختلط الامران على اليهود أضاف متى (يسوع المسيح) مت ١ : ١٨ .

وربما تسأل :

لماذا لم يسم بحسب النبوة (عمانوئيل) ؟ (٢)

نجيب بأن النبي لم يقل ، وتدعوه عمانوئيل ، بل قال

(١) هو نفسه يسوع بعد حذف النقط التي تعتبر كتشكيل فقط في العبرية.

(٢) تنبأ النبوة أشعياء النبي ، ويدعى إسمه عمانوئيل ، (اش٧:١٤).

، ويدعى عمانوئيل ، أي أن الشعب فيما بعد سيدعونه هكذا والحوادث المقبلة سوف تثبت له هذا الاسم .

لقد أعلن الملاك هذا الاسم (يسوع) من السماء مظهراً بجلاء ما في هذا الطفل من عجب ، لأن اسمه عجيب (١) إذ أن الله نفسه وضع الاسم وملاكاً حمله إلى يوسف من قبله . . . ويفسر الملاك معنى الاسم فيقول ، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ، .

فهو يبشر الشعب بأنه سيخلصهم لا من حروب مادية كما كان في القديم بل من خطاياهم ، وهذا عمل خطير لم يسبق له نظير قديماً .

ويلاحظ أن الملاك حدد قوله لأنه قال ، سيخلص شعبه ، ولم يضف إليهم سائر الأمم ! وذلك لكي لا يفاجىء مستمعيه (من اليهود) بأمر لم يألفوه . على أن المستمع المدقق لا يفوته أن لفظة (شعبه) تعني أيضاً الأمم .

أخيراً : نرى أن الملاك تحفظ جداً في كلامه ليوسف فتراه يقول :

(ستلد ابناً) ولم يقل (ستلد لك ابناً) ، لأن هذا الابن سيولد للعالم أجمع وليس لشخص بعينه . وقد سبق أشعياء بالروح القدس وقال (يولد لنا ولد) أش ٩:٦ .

(١) أش ٩:٦ ، قض ١٣ : ١٨ .

ولد فى مدينة داود

وأنت يا بيت لحم . . .

لقد شهد الأنبياء أنه سيولد فى بيت لحم (ميخا ٥ : ٢) .

فلماذا أقام فى الناصرة بعد مولده ملقياً ظلا على النبوءة ؟

يجيب فم الذهب بقوله :

إنه لم يلق عليها ظلا بل بالحرى أبان الغامض منها . لأن إقامة أمه فى مكان ووضعها فى مكان آخر لما يبين أولا أن الأمر مدبر من الله ، فلم يترك الرب بيت لحم فور مولده لكنه أقام فيها أربعين يوماً (١) معطياً الوقت للكهان الذين يريدون أن يدققوا فى البحث عن جميع الأمور وخشية أن يعتذر اليهود بأنهم لا يعرفون الزمان ولا المكان اللذين ولد فيهما لذلك جاء المجوس وحدث ما حدث من عقد المجمع العظيم وقراءة النبوات وأمور أخرى يذكرها القديس لوقا بدقة (مثل قصة حنة وسمعان الشيخ وزكريا والملائكة والرعاة . . .) وهذا كله من شأنه أن يهيء أسباب البحث عن الحدث العظيم . . .

(١) حتى عيد دخول المسيح الهيكل لتقديم الذبيحة الموصى عليها فى لا ١٢ : ١ - ٣) .

وإذا كان المجوس الذين جاءوا من المشرق لم يجهلوا مكان ولادته فبالأولى المقيمون فى المدينة كان باستطاعتهم أن يعرفوه ! . . .

إن الرب أعلن نفسه منذ البدء بعجائب شتى ولما لم يشأ اليهود أن يروه إختبأ عنهم بعض الوقت (منذ طفولته حتى سن ٣٠ سنة) ثم ظهر فيما بعد بأكثر إشراقاً من قبل ، وحينئذ لم يبشر به مجوس ولا كوكب وإنما الآب ذاته أعلن البشارة من السماء فى الأردن حيث نزل الروح القدس واستقر على رأسه وقت العماد جاذباً معه ذلك الصوت « هـذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » .

يخرج من بيت لحم

أنظروا إلى دقة النبوة فلم يقل فى بيت لحم سيقيم المسيح بل (يخرج) أى أن الولادة فقط ستكون فى بيت لحم ! . .

لقد بلغ الجهل ببعض اليهود أن يزعموا أن هذه النبوة تختص بزرو بابل - لكن قولهم هذا جعلهم يوقعوا أنفسهم فى أشكالات كثيرة . فلو أنهم تصفحوا النبوة وأتموا قراءتها لوجدوها تقول « . . . ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » ميخا ٥ : ٢ .

فهل يحق لزروبابل هذا ؟ ! . . . كما أن مولد زروبابل كان فى بابل كما يتضح من إسمه .

لقد كانت بيت لحم غير مشهورة (صغرى) ولم يجعلها أحد شهيرة ومجيدة بهذا المقدار إلا المسيح وحده فمنذ ميلاده المجيد لم تفتأ الناس يقبلون اليها من جميع العالم ليشاهدوا مكان المذود وهذا لكى يتم ما قيل « وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » ميخا ٥ : ٢ .

النجم والمجوس

« ولما ولد المسيح فى بيت لحم . . . إذا بمجوس أتوا من المشرق إلى أورشليم قائلين : أين المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له » مت ٢ : ١ ، ٢ .

• • • • •

النجم يتقدمهم..!!

قد ظهر أمامنا المشهد الثانى من المدينة المقدسة : مجوس يتبعون كوكباً يقودهم من أقاصى الأرض . . .

ودعنا نتفهم هذه الأسرار الغامضة فيحدثنا (ذهبى الفم) أولا عن :

حقيقة النجم

يتعرض القديس لفكرة خاطئة أذاعها البعض فى أيامه وهى :

أن ظهور النجم ودلالته على ميـــلاد ملك اليهود بالنسبة للمجوس أمر يدل على صدق صناعة التنجيم !

ويرد القديس على هذا الزعم قائلا :

« لو كان عند مجيئه إلى الأرض أخضع ذاته لناموس هذه الصناعة فلماذا أبطل مبدأ القدر ، وأبكم الشيطان ، وقضى على السحر الذى هو ضرب من هذا النوع ؟ ! . . . كذلك كيف عرف المجوس من ظهور هذا النجم أن المسيح كان ملك اليهود

ولم يكن لمملكته ملك (١) ولأن الرب نفسه قال بفمه المبارك « مملكتى ليست من هذا العالم » .

ثم أنه كيف عرفوا من هو المولود ؟

إذ ليس من خصائص علم التنجيم أن يعرف بواسطة النجوم من هم المولودون ! بل بنى ـ كما يزعمون ـ عن مصيرهم منذ ساعة ميلادهم فقط ! وهؤلاء المجوس لم يروا الأم عند وضعها ولا عرفوا الوقت الذى ولدت فيه ولا استطاعوا أن يتخذوا لهم نقطـــة بداية ليحددوا مصير الصبى وفقاً لحركات النجوم !

أخيراً : وهب أنهم عرفوا أن المولود إله فلأى غرض إذاً أتوا ؟ !! هناك دليل آخر يمكن أن نستنتجه وإن أردت أن تعرفه تعال بنا نتفحص حالة النجم ذاته . . .

ما هو هذا الكوكب ؟

هل كان أقل من سائر الكواكب الأخرى أو كان واحداً منها أو أنه يختلف عنها جميعاً ؟ وإن اختلف عنها فهل هو كوكب وهمى أم حقيقى ؟ ! . لنرجع إلى ما كتبه الإنجيل حيث يتضح من

(١) يقصد القديس هنا أن اليهود لم يكن لهم حينئذ مملكة قائمة بل كان قد إنقضى على آخر ملوكهم مئات السنين .

كلامه أن النجم لم يكن من جملة الكواكب وإنما كان قوة غير منظورة قد اتخذت شكلا منظوراً ويتضح هذا مما يأتى :

* سيره المخالف

فكان يسير من الشمال إلى الجنوب (لأن بلاد فارس تقع فى شمال فلسطين تقريباً) ولا يوجد كوكب يسير فى ذلك الاتجاه لأن جميع الكواكب بلا استثناء تسير من الشرق إلى الغرب .

* ظهوره نهاراً

فهو لم يضىء فى الليل فقط بل كان يضىء أيضاً فى رائعة النهار الأمر الذى لم يكن فى وسع أى كوكب آخر حتى القمر نفسه أن يعمله .

* ظهوره واختفاؤه بحكمة

فكان يظهر ويختفى على التعاقب فيظهر لهم فى الطريق قائداً إياهم حتى فلسطين وقد غاب عنهم حينما بلغوا أورشليم ، ثم ظهر لهم من جديد بعد ما تركوا هيرودس ، عالماً فى كل شىء مقتضيات السفر . فلم يكن له إذاً سير محدد كباقى النجوم مما يدل على أنه قوة عاقلة !! .

* نوع ظهوره وطبيعته

لم يجعل النجم مكانه فى الفلك وإلا لما استطاع أن يهدى المجوس فى الطريق ، فلم يكن كوكباً عادياً وإلا فكيف أرشدهم إلى كوخ حقير يأوى جسم صبى صغير - إذ لا يسمح العلو غير المحدود أن يحدد مكاناً بعينه صغيراً !

يحتاج الأمر إذن أن يترك الكوكب ذلك العلو وينزل إلى أسفل ليقف فوق رأس الصبى وهذا بالضبط ما عبر عنه الإنجيل بقوله « فإذا النجم الذى رأوه بتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبى » مت ٢ : ٩ .

† † †

مجوس من المشرق

(يقول الأب بولس اليوشي عنهم : أنهم من بلاد فارس ومن سلالة بلعام العراف وكان عندهم كتبه التي يشرح فيها عبادته المرذولة وعلم تسير الكواكب (يهوذا ١١ : ٢عدد ٢٢ : ٧) الا أن هؤلاء المجوس قرأوا وفهموا بعض النبوات عن المسيح ...) .

رأينا نجمه في المشرق

ربما يسأل البعض لماذا ظهر للمجوس دون غيرهم ؟ .

يجيب فم الذهب : لأنه ما كان ينتظر أن الجميع يصدقونه فكشف لهؤلاء فقط لأنهم كانوا أكثر من غيرهم استعداداً لقبوله ثم يضرب أمثلة لذلك فيقول « إن أمما كثيرة هلكت ولم يرسل يونان النبي إلا إلى أهل نينوى وحدها ، ولصين كانا في وقت الصلب فخلص أحدهما وحده دون الآخر ... » .

ثم أردف القديس قائلا :

أنظروا ! كيف كشفت حادثة ظهور النجم للمجوس أسراراً عجيبة : إن الرب جاء إلى العالم كله يدعوهم إلى عبادته والسجود

له ، ففتح لذلك الباب للأمم منذ البداية . فكان هذا الحادث يكشف عن قلة إحساس اليهود وبلادتهم كل وسيلة لتبرر ذواتهم باللعجب ! لقد جاء الوثنيون من بلادهم البعيدة . ليبحثوا عن (المولود ملك اليهود) أما هؤلاء الذين كانوا يواظبون على سماع الأنبياء ونبواتهم لايعبون ما يقرأونه ! فأي عذر لهم حينما يرون المجوس يقبلون ابن الله المتجسد ويسجدون له بمجرد رؤية ذلك النجم!! لذلك قيل « جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله... » يو١ : ١١.

الله يبشرهم بنجم

(الله بعدما كلم الآباء ... بأنواع وطرق كثيرة)
عب ١ : ١

ربما تسأل : لماذا جذبهم الله بحادثة كهذه ؟

لكن - وهل من وسيلة أخرى غير هذه كانت تلائمهم ! فلو أنه أرسل لهم أنبياء لما إحتمل المجوس تعليمهم ولو بعث بصوت من إعلا لصموا آذانهم ، ولو أرسل لهم ملاكا لتحولوا عنه ... فترك الله كل تلك الوسائل وتنازل بنعمته كل التنازل فأظهر لهم كوكباً عظيماً له طبائع مدهشة بطرق يألفونها ، فكأن الله بشرهم بنفس صناعتهم . ولم تكن هذه أول مرة يتنازل الله ليكشف

للبشر بطرق يفهمونها (إقرأ حادثة قول العرافة لشاول الملك ... فى ١صم ٢٨ كذلك كيف عرف الفلسطينيون إرادة الله فى رجوع تابوت العهد ١صم ٦ . وقد نسج بولس الرسول على هذا المنوال فى تبشيره لليونانيين (أنظر أع ١٧ : ١٦) . . .

فارتضى الرب أن يدعو المجوس بواسطة ذلك النجم لكى يرق بهم إلى ما هو أسمى لذلك نراه بعد ما قادهم بالنجم وأخذ بيدهم ثم وقف بهم عند المذود لم يكلمهم بعد بواسطة كوكب بل بواسطة ملاك ، إذ أوحى اليهم فى حلم ، مت ٢ : ١٢ .

وهكذا كانت النتيجة مشرفة فأصبح المجوس أفضل من كانوا عليه ولذلك قيل ، أعط الحكيم حجة فيكون أكثر حكمة ، (أم ٩ : ٩) .

أتوا ليسجدوا له

(ولما جاءوا إلى البيت ورأوا الصبى مع مريم أمه . . . فخروا وسجدوا له) . مت ٢ : ١١ .

ويندهش القديس فم الذهب قائلا :

أى رمز من جميع رموز الملك رأوها ؟! رأوا كوخاً

ومذوداً ، صبياً فى اللفائف ، أما فقيرة !!! ولم يكن هذا هو ما دفعهم للمجىء ولا للسجود له .

فلو أنهم جاءوا ليسجدوا للملك لشعروا بخيبتهم حينما رأوه فى هذه الوضاعة ، وهذا لم يحدث . . . وإن كان ملكا فأى خير كانوا يرجونه منه ؟

هب أنه ولد فى قصر وكان أبوه الملك حاضراً لكان يمكن أن يقال أنهم جاءوا استرضاء لأبيه بتقديمهم الإكرام العاجل له ولكنهم إذ لم يتوقعوا أن يصير ملكا عليهم إذ أنه من أمة غريبة وبلاده بعيدة عن بلادهم ولم يبلغ بعد حد الرجال لأنه طفل فلأى سبب إذن قاموا بهذه الرحلة الشاقة وتعرضوا للأخطار الكثيرة ؟! هل كانت لهم شريعة تدعوهم إلى أن يكرموا الملوك المولودين ؟! (يبدو أن الأمر أعمق من هذا كله ويظهر أن هناك سراً دفعهم أولا إلى المجىء ثم للسجود للطفل) لذلك نرى القديس يقول .

الله هو الذى قاد قلوبهم

لم يكن النجم هو الذى جعلهم يهتمون كل هذا الإهتمام الكبير فلا يعقل أن نجما قادهم . . وإنما الله هو الذى أنهض نفوسهم كما

فعل مثل ذلك مع كورش الملك حين إستحثه أن يطلق اليهود (عز ١ : ١) وكما فعل مع بولس حيث ناداه بصوت من أعلا جعله يتأثر فأطاع لوقته (أع ٩).

لماذا اختفى عنهم النجم

قد غاب عنهم النجم حينما دخلوا أورشليم حتى إذ فقدوا المرشد اضطرهم هذا إلى أن يسألوا هيرودس الذى دعا اليهود وسألهم (أين يولد المسيح)؟

وبهذه الطريقة تجلت الحوادث بأكثر وضوح وأخذ المجوس دروساً من نبوات الأنبياء...

تأملوا هذا المشهد! كيف تدبرت أمور عجيبة وغريبة!: اليهود كانوا يسمعون من المجوس أن نجما نادى بميسا فى بلاد فارس، والمجوس كانوا يقتبسون من اليهود المعرفة بالنبوات: أن هذا الذى بشر به النجم إنما هو رجاء الأمم الذى تنبأت عنه الأنبياء قديما... وهذا كان كله لكى تظهر لنا معلومات أدق وأوضح عن حقيقة ميلاد الرب العجيب...

بعد هذا عاد اليهم النجم مرشداً وكان يقودهم جاذباً اياهم كأنه يأخذ بأيديهم فى وائمة النهار..

ورب قائل يقول: ما الحاجة إلى النجم بعد ما عرفوا مكان الضيعة من اليهود؟ نعم - لقد كانوا محتاجين إلى النجم حتى بعدما عرفوا القرية، لأن البيت ما كان ذا شهرة واسعة والأم لم تكن ذائعة الصيت وليس هذا فحسب بل ليظهر الصبى أيضا، لأنه ما كان لديهم أمر آخر يستدلون به عليه لذلك ظهر لهم بعد خروجهم من أورشليم وما توقف مسيره إلى أن وصل إلى المذود حيث جاء، ووقف فوق حيث كان الصبى».

فيالعجائب المولود! مجوس يسجدون لطفل ونجم يقودهم! لقد كانت رحلة مرفقة وعجيبة! ولم يمكن ممكنا بغير ذلك أن يصدقوا ولا أن يطمئنوا إلى أن هذا هو الملك، ولو جاءهم صوت ملاك من السماء.

ما الذى دفعهم للسجود؟

«لكنهم الآن رأوا ما هو أعظم من ملاك.... أجل وجدوا المولود ذاته وقد استقر فوقه النجم دالا على أصله الإلهى وباستقراره فوقه حفزهم على السجود له وتقديم الهدايا..». لذلك:

فتحوا كنوزهم وقدموا هدايا

لقد قدموا إليه (ذهباً ولباناً ومراً...) ولم يقل الكتاب

أنهم قدموا ثياباً فاخرة ولا أشياء من كل ما يهدى للملوك مع أنهم كانوا قادرين على ذلك !

يوضح الأنبا بولس البوشي ذلك قائلا :

لقد قالوا فى نفوسهم إن قبل الذهب فيكون هو ملكاً ، وإن قبل اللبان فهو إله ، وإن قبل المر فهو علامة على أنه سيموت أن يقابل الموت ويتحمله ثم يقبره وذلك لأنهم سمعوا فى الناموس أن المسيح يبقى إلى الأبد (١) . . .

المجوس آباء الكنيسة الأوائل

يمدح فم الذهب هؤلاء المجوس قائلا :

أنظروا إلى فضيلتهم : لقد أطاعوا ما رأوا ، وجاءوا من بلاد بعيدة وليس هذا فحسب بل أنهم جاهروا بما جاءوا لأجله أيضاً قائلين ، جئنا لنسجد له . لم يخشوا أن يوصفوا بأنهم أناس محتالون فلم يخافوا لا من سخط الشعب ولا من طغيان الملك ، مع أنهم تحرأوا أن يخبروا أنه يوجد ملك آخر غير القائم حينذاك .

لذلك فأى من هذه الجهة أعتقد أن هؤلاء الرجال قد صاروا فى

(١) ربما سمعوا ذلك من اليهود أو قرأوا نبوات عن المسيح فى العهد القديم وذلك مثل قول داود . « مز ١١٠ : ٤ » .

أوطانهم معلمين لأهل بلدهم لأنهم قد تلقوا الوحى من الملاك وعرفوا شهادة الأنبياء من اليهود كما رأوا المولود ذاته . . .

(وهنا يحول القديس كلامه لنقد أصحاب البدع التى ظهرت حتى أيامه) فيقول : فليتأدب مركيون وليخز بولس السموساطى لأنهما لم يريدا أن يريا ما رآه المجوس آباء الكنيسة الأولون ، ولا أستحى أن أدعوهم هكذا . . . فليخجل مركيون عند نظره إلهاً معبوداً بالجسد وليستتر بولس حياءاً إذا ما رأى الطفل تقدم له العبادة ليس كإنسان ، وليخجل اليهود مع هذين الرجلين عند نظرهم إلى من يعبده البرابرة والمجوس وكان من اللائق أن يتقدم اليهود إليه أولا ، وما كان يجب أن يجىء إليه المجوس قبلهم ولكنهم إذ رأوا ما صنعه المجوس أخيراً لم يندموا وأبوا أن يسيروا فى إثرهم مع أنه كان لهم أن يرقبوهم كلام المجوس ولكن يبدو أنهم تثقلوا نوماً فى كبريائهم وحسدهم وهذا لكى يتم الكتاب القائل (أن الأمم سيسبقون هذا الشعب) .

سبيلنا اذاً نتبع المجوس . .

فلنقف أثر المجوس الذين لو لم يأتوا من بلدهم البعيد لما أبصروا المسيح - فهم لما كانوا فى بلدهم أبصروا النجم ولما

ابتعدوا عن فارس أبصروا شمس البر ذاته . . . فلنقلع نحن عن العوائد العالمية ولنقطع شوطاً بعيداً عنها لنبصر المسيح . وهيا إعترض طريقنا ملوك أو شعوب أو طغاة فلا ينبغي أن نرجع عن عزمنا مثلما صنع المجوس . . .

دعوة للتناول :

أترك يا أخي شعب اليهود وغادر المدينة المضطربة ودع الطاغية الشرير مع اضطرابات العالم وبادر إلى بيت لحم بيت الخبز الروحي الحقيقي . إن كنت راعياً فتعال إلى المغارة لترى الصبي في المذود ، أو ملكاً فاترك بريقك فلا يجديك نفعاً ، أو كنت مجوسياً فلا ينبغي أن يعوقك شيء إذا ما جئت لتقديم الإكرام والعبادة . . . سوف لا تدوس ابن الله . . . إن فعلت ذلك برهبة وفرح . لكن إحذر فقط أن تقتفي أثر هيرودس القائل : « أذهب أنا أيضاً وأسجد له » وهو يريد في قلبه أن يقتله . هكذا يصنع الذين يشتركون في الأسرار بدون استحقاق .

مطبعة الكرنك
٦٨ شبرا - ت ٢٢٩٨٠٠ القاهرة